التكامل المعرفي عند الفيلسوف ابن طفيل من خلال قصته حي بن يقظان

The polymathy of the philosopher Ebn Tophail through his novel "Ḥayy ibn Yaqẓān"

ط.د/ إسماعيل أوراشي

جامعة القاضي عياض كلّية الآداب والعلوم الإنسانية – مراكش (المغرب)

aouarrachi77@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/08/22 **تاريخ القبول: 2021/09/29**

ملخص:

الفيلسوف أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي (1100م–1185م)، أحد الرموز العلمية والفكرية التي أثرت في الثقافة الإسلامية بل والعالمية إذ كان منجزه –رحمه الله– نموذجا حيّا للتكامل المعرفي بين العلوم الشرعية وغيرها من العلوم، فقد جمع كثيرا من المعارف التي أتقنها وأودعها في قصته "حي بن يقظان" والتي جمع فيها بين الفلسفة والأدب والدين والتربية والطب والفلك والأخلاق...، وهي قصة ذات مضامين فلسفية عميقة، تناقش ما يسمى برؤية العالم أو النموذج المعرفي، حيث تتضمن القصة عناصر الثقل المعرفي الأساسية والممثلة في (الإله/الإنسان/الطبيعة)، والمقال يتناول أهم العلوم والمعارف التي تضمنتها القصة.

الكلمات المفتاحية: التكامل المعرفي، ابن طفيل، حي بن يقظان، القصة، الطب، الفلك الشعر.

Abstract:

The philosopher Abu Bakr Muhammad ibn Abd al-Malik ibn Muhammad ibn Muhammad ibn Tufail al-Qaisi al-Andalusi (1100 - 1185) is one of the lofty scientific and intellectual symbols that influenced Islamic and even global culture. As he - may God have mercy on him - was a living model of cognitive integration between the forensic sciences and other sciences, and he collected a lot of knowledge that he perfected in his famous story “Hayy ibn Yaqdan”

in which he combined philosophy, literature, religion, education, medicine, astronomy and morals, and it is a very interesting story. Deep philosophical implications, discussing the so-called world view or cognitive model, where the story includes the basic elements of knowledge weight represented in (God / Human / Nature), and the article deals with the most important sciences and knowledge included in the story.

***Keywords*:** medicine, Astronomy, Poetry, polymathy, novel.

تمهيد:

إنّ المتتبع لتاريخ الأمة الإسلامية ليقف وقفة إجلال وإكبار لعلماء عظماء سطروا فصوله بمداد من الرفعة والسؤدد، حتى أصبحت آثارهم تروى ولا تطوى، وكتبهم ومصنفاتهم تدرس في أعتى الجامعات العالمية وأرقى المراكز المعرفية، واتخذها العالمون منارات تهدي البشرية لتخرجهم من دركات التخلف والانحطاط لتسمو بهم إلى درجات المعرفة والعلم علماء برزوا وتفوقوا على كثير من معاصريهم، فلا فاصحهم أحدٌ ولو كان مثل خُطباءِ إياد(*) إلا فصحوه وفضحوه ولا ناظرهم قطُّ قِرنٌ، إلا كسروا قرنه، فقرع مِنْ نَدَمٍ سِنَّه، ولا ناجزهم خصم إلا بشروه بسوء منقلبه، وسدوا عليه طريق مذهبه لمهربه، فكانوا بحق حسنة الأيام وسفراء الإسلام، ولقد كان الواحد منهم يبرع في عدة تخصصات وعلوم، فهذا ابن تيمية قد صنف في عدة معارف فكتب في الفقه والأصول والسنة والمنطق والتفسير والتصوف ...، وهذا الإمام الطبري عرف أنّه مفسر ولكنه برع أيضا كمؤرخ وفقيه وعالم لغة وشعر، وهذا قاضي قضاة مصر ابن خلدون يبرع في التاريخ والسياسة ... وغيرهم كثير كانوا أئمة موسوعيين اتصفوا بالتكامل المعرفي، نختار لبحثنا هذا ابن طفيل، فمن هو ابن طفيل؟ وما المعارف التي تغشاها؟ وأين يتجلّى التكامل المعرفي من خلال قصته "حي بن يقظان" ومن خلال تراثه العلمي المتناقل؟

ولقد استعان الباحث في بحثه بالمنهج الاستقرائي التحليلي من أجل اظهار مكنونات القصة.

المبحث الأول: تعريف التكامل المعرفي:

التكامل المعرفي مركب إضافي من لفظين مفردين بإضافة لفظ: «المعرفي» إلى لفظ: «التكامل»، ولتجلية معناه نعرفهما مفترقين ثم مؤتلفين:

المطلب الأول: معنى التكامل

بالبحث في المعاجم اللغوية نجد أنّ مادة (ك م ل) تدلّ على التمام بعد التجزئة وتوحي أيضا أنّ جزء الشيء أو الأجزاء المتعددة للشيء الواحد قد اتحدت وتوحدت واندمجت واختلطت، وأخذت شكلا واحدا، ولهذا فقد اكتمل وتم[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[2].

إننا هنا لسنا بصدد استقراء جميع الألفاظ القرآنية الدالة على معنى الكمال والتمام وانما إعطاء مثال من ألفاظه في الكتاب العزيز، تيسيرا للفهم وتوطئة للمقصود باعتبار القرآن الكريم خزانا لا تنضب معانيه ولا تحصى مدلولاته ...

المطلب الثاني: معنى المعرفة

الفرع الأول – لغة:

عرف: العين والراء والفاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تتابع الشيء متَّصلا بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة؛ والأصل الآخر؛ المعرفة والعرفان؛ تقول: عرف فلان فلانا عرفانا ومعرفة، وهذا أمر معروف؛ وهذا يدلّ على ما قلناه من سكونه إليه، لأن من أنكر شيئا توحش منه نبا عنه[3].

الفرع الثاني – اصطلاحا:

والمعرفة اصطلاحا تقال للإدراك المسبوق بالعدم، ولثاني الإدراكين إذا تخللهما عدم ولإدراك الجزئي، أو البسيط،... يقال: لحصول صورة الشيء عند العقل وللاعتقاد الجازم المطابق الثابت ولإدراكه الكلي، ولإدراكه المركب... والمعرفة تقال فيما يُتوصل إليه بتفكر وتدبر...[4].

المطلب الثالث: التكامل المعرفي اصطلاحا

أي: المركب الإجمالي والذي يعنون به إتمام العلوم بعضها لبعض حتى تحصل المعرفة بالشيء معرفة تامة وحسنة، والمقصود من نظرية التكامل المعرفي هنا هي تلك الصورة العلمية المتكاملة للوجود والذات البعيدة عن الفصل والتجزئة والاقصاء والتي تستلزم في الرؤية الإسلامية وجود رأس وجناحين لا يمكن التحليق بدونهما، الرأس الذي يمثله التوحيد والجناحان اللذان يمثلهما التزكية والعمران(5).

ويجدر بنا الإشارة إلى أنّ صياغة معادلة التكامل المعرفي تكون في ثلاثة مستويات متضايفة متلازمة هي(6):

– التكامل بين مصدري المعرفة؛ الوحي والوجود؛

– التكامل بين أدائي المعرفة العقل والحس؛

– التكامل بين المصادر والأدوات.

عرفه بعضهم بأنّه: (إطار منهجي يحقق التكامل بين مصادر المعرفة بشقيها الوحي والكون وفق الرؤية الكلية الإسلامية مستهدفا بناء شخصية الفرد المسلم والمجتمع المسلم)(7).

وقد ارتبط هذا المفهوم بالجمع بين القراءتين؛ قراءة الوحي وقراءة الوجود، أو قراءة الكتاب المسطور وقراءة الكتاب المنظور.

المبحث الثاني: التكامل العلمي عند ابن طفيل من داخل قصة حي بن يقظان ومن خارجها

المطلب الأول: التعريف بالفيلسوف ابن طفيل

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي (1100م – 1185م)، عربي من بني قيس عيلان بن مضر، وينسب أيضا فيقال: الأندلسي والقرطبي والإشبيلي ويكنّى بأبي جعفر، هو فيلسوف وفيزيائي وقاض أندلسي، ولد في وادي آش، على مسافة ستين كم تقريبا في الشمال الشرقي من قرطبة، ثم تعلم الطب في غرناطة وخدم حاكمها. توفي في عام 581هـ الموافق 1185م في مدينة مراكش، ودفن هناك، واشترك السلطان أبو يوسف في تشييع جنازته، برز في علوم شتى فقد كان فيلسوفا ومفكرا وقاضيا وطبيبا وفلكيا وشاعرا وأديبا .

المطلب الثاني: ملخص مقتضب لقصة حي بن يقظان

تروي القصة تفاصيل حياة شخص يعرف باسم "حي بن يقظان" سارت على النحو التالي: ترعرع في ربوع جزيرة وحيدا بعيدا عن أيّ عنصر بشري، وكانت علاقته في غضون حياته تقترن بالكون والدين فقط؛ لذلك فإنّ سطور الرواية تتضمن أمورا فلسفية كثيرة لاقترانها بالدين، بعد ولادته مباشرة تخلّت عنه والدته خوفا من شقيقها الملك ووضعته في تابوت وتركته يصارع أمواج البحر حتى حملته آمنا مستقرا إلى شواطئ جزيرة تسمى "الواق واق"[8]، لتتبناه ظبية بعد أن سمعت صوت بكائه، فأرضعته شفقة عليه وحضنته كأنه ابنها الضائع، ويصارع بن يقظان مراحل حياته السبع بدءا من رضاعته من الظبية. انتقالا إلى مرحلة وفاة الظبية حيث بدأت المشاعر بالتحرك لديه بحثا عن ماهية الموت وصولا إلى مرحلة التعرف على النار واكتشافها، ثم تعرفه واكتشافه للأجسام المحيطة به، ولم ينتهِ الأمر به هنا بل انتقل إلى المرحلة الخامسة التي ساعدته في التعرف على الفضاء ورصده واكتشاف ما كان في الماضي أما سادسا فقد كان في هذه المرحلة قادرا على الاستنتاج والوصول إلى المراد بعد التفكير، المرحلة الأخيرة فتتمثل بإصراره على تحقيق السعادة من خلال العيش بتفاصيل حياة كان قد رسمها بمخيلته بذاته، هذا باقتضاب كبير مجمل حياة يحي بن يقظان إذا المهم في هذه القصة ذكر تمازج العلوم التي برع فيها ابن يقظان من أجل إبراز الرؤية التوحيدية التي تبناها كمرجعية في فلسفته.

المطلب الثالث: المزج بين المعارف المتنوعة والعلوم المختلفة عند ابن طفيل

الفرع الأول: التكامل بين مجالي الأدب والطب داخل قصة حي بن يقظان

*** بين العلوم الشرعية (القرآن) والعلوم الإنسانية (فن القصة) عند ابن طفيل:**

تأثر ابن طفيل بالحدث القرآني، حين حدّثنا عن خوف أم"حي"، في الرواية الواقعية لنشأته من أخيها الملك فتقذف به في اليم، بعد أن تضعه في تابوت، وهذا ما نجده في القصص القرآني في سورة القصص قال تعالى: ﴿وأَصْبَحَ فؤاد أمّ موسى فارِغا إنْ كادَتْ لَتبْدِى بِهِ لَوْلا أنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكونَ مِنَ المؤْمِنِينَ﴾[9] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى أم موسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَم وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إنا رَادوه إِلَيْكِ وَجَاعِلوه مِنَ الْمرْسَلِينَ﴾[10].

أورد ابن طفيل جملة من آي الذكر الحكيم، وقد أوردها بحرفيتها كقوله تعالى: ﴿لا يَعْزب عَنْه مِثْقَال ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَر مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَر إِلَّا فِي كِتَابٍ مبِينٍ﴾[11]، ﴿إِنَّمَا أَمْره إِذَا أَرَادَ شَيْئا أَنْ يَقولَ لَه كنْ فَيَكون﴾[12]، ﴿وَلا تَدْع مَعَ اللَّهِ إِلَها آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هوَ كلّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه لَه الْحكْم وَإِلَيْهِ ترْجَعونَ﴾[13]، ﴿لِمَنِ الْملْك الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[14]، ﴿خَتَمَ اللَّه عَلَى قلوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[15] ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدّنْيَا ,فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[16]، ﴿سنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْل وَلَنْ تَجِدَ لِسنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾[17]، وغيرها كثير..

*** بين النثر (الرواية) والطب (التشريح):**

سنرى ابن طفيل يصوغ الطب وتتبدّى خبرته في جانب التشريح عبر مؤلفه الأشهر في الفلسفة (رسالة حي بن يقظان)، فإنّه شرح على لسان بطل قصته الشهيرة حي بن يقظان تشريح الغزالة، وبَيَنَ وصف الأعضاء التي شاهدها من الجلد حتى القلب وفي ذلك يقول: (.... وقع في خاطره أنّ الآفة التي نزلت بها إنما هي في عضو غائب عن العيان، مستكن في بطن الجسد، وأنّ ذلك العضو لا يغني عنه في فعله شيء من هذه الأعضاء الظاهرة فلما نزلت به الآفة عمت المضرة وشملت العطلة.

وطمع بأنه لو عثر على ذلك العضو وأزال عنه ما نزل به لاستقامت أحواله وفاض على سائر البدن نفعه وعادت الأفعال إلى ما كانت عليه؛ وكان قد شاهد قبل ذلك في الأشباح الميتة من الوحوش وسواها أنّ جميع أعضائها مصمتة لا تجويف فيها إلا القحف والصدر والبطن، فوقع في نفسه أنّ العضو الذي بتلك الصفة لن يعدو أحد هذه المواضع الثلاثة. وكان يغلب على ظنه غلبة قوية أنّه إنما هو في الموضع المتوسط من هذه المواضع الثلاثة؛ إذ استقر في نفسه أنّ جميع الأعضاء محتاجة إليه وأنّ الواجب بحسب ذلك أن يكون مسكنه في الوسط، وكان أيضا إذا رجع إلى ذاته شعر بمثل هذا العضو في صدره ولأنه كان يعترض سائر أعضائه كاليد والرجل والأذن والأنف والعين ويقدر مفارقتها، فيتراءى له أنه كان يستغني عنها، وكان يقدر في رأسه مثل ذلك ويظن أنه يستغني عنه. فإذا فكر في الشيء الذي يجده في صدره لم يأت له الاستغناء عنه طرفة عين.

وكذلك كان عند محاربته للوحوش، أكثر ما كان يتقي من صياصيهم على صدره لشعوره بالشيء الذي فيه. فلما جزم الحكم بأن العضو الذي نزلت به الآفة إنما هو في صدرها أجمع على البحث عليه والتنقير عنه؛ لعله يظفر به ويرى آفته فيزيلها. ثم إنه خاف أنه يكون نفس فعله هذا أعظم من الآفة التي نزلت بها أولا فيكون سعيه عليه ثم إنه تفكر: هل رأى من الوحوش سواها من صار في مثل تلك الحال ثم عاد إلى مثل حاله الأولى؟ فلم يجد شيئا! فحصل له من ذلك اليأس من رجوعها إلى حالها الأولى إن هو تركها وبقي له بعض الرجاء في رجوعها إلى تلك الحال إن هو وجد ذلك العضو وأزال الآفة عنه. فعزم على شق صدرها وتفتيش ما فيه، فاتخذ من كسور الأحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة أشباه السكاكين، وشق بها بني أضلاعها حتى قَطع اللحم الذي بني الأضلاع وأفضى إلى الحجاب المستبطن للأضلاع فرآه قويًّا، فقوي ظنه بأن مثل ذلك الحجاب لا يكون إلا لمثل ذلك العضو وطمع بأنه إذا تجاوزه ألفى مطلوبه، فحاول شقه فصعب عليه لعدم الآلات ولأنها لم تكن إلا من الحجارة والقصب، فاستجدها ثانية واستحدها وتلطف في خرق الحجاب حتى انخرق له فأفضى إلى الرئة، فظن أنها مطلوبه فما زال يقلبها ويطلب موضع الآفة بها.

وكان أولا إنما وجد منها نصفها الذي هو في الجانب الواحد، فلما رآها مائلة إلى جهة واحدة، وكان قد اعتقد أن ذلك العضو لا يكون إلا في وسط الصدر، فيعرض البدن كما هو في الوسط في طوله؛ فما زال يفتش في وسط الصدر حتى ألفى القلب وهو مجلل بغشاء في غاية القوة، مربوط بعلائق في غاية الوثاقة، والرئة مطيفة به من الجهة التي بدأ بالشق منها، فقال في نفسه: إن كان لهذا العضو من الجهة الأخرى مثل ما له من هذه الجهة فهو في حقيقة الوسط ولا محالة أنه مطلوبي، لا سيما مع ما أرى له من حسن الوضع وجمال الشكل وقلة التشتت وقوة اللحم، وأنه محجوب بمثل هذا الحجاب الذي لم أر مثله لشيء من الأعضاء. فبحث عن الجانب الآخر من الصدر فوجد فيه الحجاب المستبطن للأضلاع ووجد الرئة كمثل ما وجد من هذه الجهة، فحكم بأنّ ذلك العضو هو مطلوبه فحاول هتك حجابه وشق شغافه فبكد واستكراه ما قدر على ذلك بعد استفراغ مجهوده.

وجرّد القلب فرآه مصمتاً من كلّ جهة فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة فلم ير فيه شيئا، فشد عليه يده فتبين له أن فيه تجويفا فقال: لعل مطلوبي الأقصى إنما هو في داخل هذا العضو وأنا حتى الآن لم أصل إليه. فشق عليه فألفى فيه تجويفين اثنين؛ أحدهما من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى ق منعقد، والذي من الجهة اليمنى مملوء بعقد منعقد، والذي من الجهة اليسرى خال لا شيء به.

فقال: لن يعدو مطلبي أن يكون مسكنه أحد هذين البيتين .ثم قال: أما هذا البيت الأيمن فلا أرى فيه إلا هذا الدم المنعقد. ولا شك أنه لم ينعقد حتى صار الجسد كله إلى هذه الحال – إذ كان قد شاهد الدماء متى سالت وخرجت انعقدت وجمدت ولم يكن هذا إلا دما كسائر الدماء – وأنا أرى أن هذا الدم موجود في سائر الأعضاء لا يختص به عضو دون آخر، وأنا ليس مطلوبي شيء بهذه الصفة إنما مطلوبي الشيء الذي يختص به هذا الموضع الذي أجدني لا أستغني عنه طرفة عين وإليه كان انبعاثي من أول.

وأما هذا الدم فكم مرة جرحتني الوحوش في المحاربة فسال مني كثير منه فما ضرني ذلك ولا أفقدني شيئا من أفعالي، فهذا بيت ليس فيه مطلوبي. وأما هذا البيت الأيسر فأراه خاليا لا شيء فيه، وما أرى ذلك لباطل؛ فإني رأيت كل عضو من الأعضاء إنما لفعل يختص به، فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شرَفه باطلا؟ ما أرى إلا أن مطلوبي كان فيه! فارتحل عنه وأخلاه.

وعند ذلك طرأ على هذا الجسد من العطلة ما طرأ ففقد الإدراك وعدم الحراك .فلما رأى أنّ الساكن في ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله تحقق أنه أحرى أن لا يعود إليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتخريق ما حدث، فصار عنده الجسد كله خسيسا لا قدر له بالإضافة إلى ذلك الشيء الذي اعتقد في نفسه أنه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك...)[18].

وإنما أطلت في نقل كلام المصنف لبيان براعته في الطب كيف لا وهو الطبيب الحذق والمشرح البارع، ومن خلال توصيفه تكلم عن عملية التشريح بقالب روائي جمع فيه بين تخصصه وأشجانه وأحزانه لوفاة الظبية.

هنا يظهر التكامل المعرفي بين حقلين كبيرين من حقول المعرفة والإبداع الإنسانيين حقل ينتمي إلى العلوم المادية أو العلوم البحتة وهو علم التشريح المرتبط بعلم الطب، وحقل ينتمي إلى الفنون وهو الأدب وبالضبط فن القصة..

*** علم الفيزياء في قصة حي بن يقظان:**

تطالعنا القصة بتجربة علمية لها علاقة بعلم الرياضيات ألا وهي قوة الدافعة المعروفة باسم (دافعة أرخميدس)، فقد قام بملء زق جلد هواءً وربطه ثم غاص به تحت الماء فلاحظ قوة دفعه إلى الأعلى...[19].

*** علم الفلك في قصة حي بن يقظان:**

يقول ابن طفيل في قصته (فنَظَرَ "حي بن يقظان" أولاً إلى الشَّمس والقَمَر وسائر الكواكب فرآها كُلَّها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب، فما كانَ منها يمرُ على سمْتِ رأسهِ رآه يقطع دائرة عُظمى، وما مال عن سمْت الرَّأس إلى الجانبين كانت دائرته أصغر من دائرة ما هو أقرب.. ولما كانَ مسكنه على خطِّ الاستواء.. كانت هذه الدَّوائر كلَّها (إمَّا) قائمة على سطح أفقه أو متشابهة الأحوال في الجنوب والشَّمال.. وكان يترقَّب إذا طلَعَ كوكب من الكواكِب على دائرةٍ كبيرةٍ، وطلَعَ كوكب آخر على دائرة صغيرة –وكان طلوعهما معاً– فكان يرى غروبهما معاً، واطَّرَد ذلك في جميع الكواكب وفي جميع الأوقات فتبين له بذلك أنَّ الفَلَك على شكل الكُرة...)[20].

*** علم التربية في قصة حي بن يقظان:**

لا تقل المعاني التربوية في أهميتها عن المعاني الفلسفية في قصة حي بن يقظان ... فابن طفيل يؤكد على أهمية الاستعدادات العقلية والانفعالية عند الإنسان، فالإنسان يمتلك قابلية التعلم والإدراك بالفطرة السليمة وعلى هذا الأساس تمكن حي من إدراك المحسوسات والمعقولات إدراكا يتصف بالتمام والكمال. لأن عقل حي كان مهيأ باستعداد فطري للكشف عن طبيعة الحقائق والعالقة الجوهرية بين الأشياء: بين الخالق والمخلوق، بين الجسد والروح، بين المتشابهات والمتناقضات، وبين القضايا المتقابلة والمتعاكسة. ومع ذلك كله فإنّ هذه المعرفة لا تحدث بصورة عفوية كيفما اتفق بل تحدث عبر منهجية عرفانية ترتبط بالعمر

والخبرة والتجربة والبيئة. فالطبيعة عامل كشف وإلهام وهي التي تصقل الفطرة وتنمي فيها انقداحات المعرفة وبفضل التجربة الطبيعية لحي تمكن من الكشف عن ماهية الأشياء وطبيعة المعقولات.

يشكل مذهب ابن طفيل في حي بن يقظان ينبوعا متدفقا للفكر الطبيعي في الفلسفة والتربية، ويعدّ بحق علّامة التربية الطبيعية وربّان المذاهب الطبيعية المختلفة التي شهدتها أوروبا في القرن الثامن عشر على يد المفكر الفرنسي جان جاك روسو في كتابه إميل. ويقرّ كثير من النقاد بأنّ روسو كان قد نهل من معين الفكر الطبيعي عند ابن طفيل وأنه قد قرأ بتمعن كبير قصة حي بن يقظان واطلع على مضامينها واستفاد منها في تشكيل نظريته الطبيعية في التربية والسياسة. ففي كلّ منحى من مناحي فكر ابن طفيل تطالعنا الطبيعة بجمال تكوينها طاقة سامية خالقة تمكن حي من الوصول إلى أقصى غايته وأنبل طموحاته الإنسانية بوصفه مفكرا إنسيا عاقلا وحكيما[21].

*** الفلسفة في قصة حي بن يقظان:**

يظهر من القصة أن ابن طفيل كان من الإشراقيين، وقد حاول بطريق التأمل أن يحل معضلة كبرى شغلت حكماء وقته، وهي علاقة النفس البشرية بالعقل الأول، وقد تبع في ذلك رأي ابن باجه وأظهر نمو الفكر الإنساني درجة فدرجة في شخص إنسان منقطع بعيد عن مشاغل الحياة سليم من آثارها وأدرانها، واختار ابن طفيل بطلا للقصة شخصا لم يعلم من الحياة شيئًا، وقد نما عقله في الانفراد المطلق بذاته، وتنبه فكره بقوته وبدافع من العقل الفعال، فأحاط بفهم أسرار الطبيعة وحلّ أعضل المسائل الإلهية.

الفرع الثاني: التكامل بين مجالي الأدب والطب خارج قصة حي بن يقظان:

*** بين الشعر والطب:**

يقول الدكتور أحمد أمين: (نحن لو قارنّا بين ابن سينا وابن طفيل من الناحية الأدبية، وجدنا أنّ ابن طفيل أرقى لغة وأدبا من ابن سينا بكثير، فعبارة ابن طفيل أدبية مشرقة، وعبارة ابن سينا غامضة مغلقة، ويظهر أنّ ابن طفيل كان مثقفا ثقافة أدبية أرقى من ثقافة ابن سينا ففي كثيرٍ من عبارات ابن سينا وألفاظه ما يدل على أنه كان يستقي معلوماته اللغوية من

المعاجِم، لا من كتب الأدب، فجاءت بعض الأحيان نابية، أما ابن طفيل؛ فيستقي معلوماته اللغوية من كتب الأدب والمثقفين بها، فجاءت عبارته أنصَع وأبلَغ[22].

لقد كان لموسوعية ابن الطفيل بصمة خاصة على مؤلفاته، فاستطاع بموهبته في الشعر أن يصوغ خبرته الطبية في قصيدة بلغت أكثر من (سبعة آلاف وسبعمائة) بيت، وهي ما زالت مخطوطة وموجودة في مكتبة القرويين بفاس برقم (3158)، نستشهد هنا ببعض أبياتها لإبراز مدى تمكنه من الشعر إزاء الطب ومدى تكامله المعرفي بين تخصصين كبيرين، علم الطب الداخل ضمن العلوم الحقة/البحتة والشعر، وهذه القصيدة من بحر الرجز[23]:

أذكـر فيه علـل الإنسان بغايـة الإيضاح والبـيان
وأذكر الأعضـاء فيه جمعا ذكرا يفيد من وعى واستمعا
يكون بالرأس ابتداء الذكر ثم بالـرجل انتهـاء الأمر
وأذكـر العـلاج والدواء وما يحيـل السـم والدواء

وفي حديثه عن حصوات الكلى التي تسبب حرقان وعسر عند التبول، قال:

تعـرف ذي العلة باليونان ديابيـطا في منطق اللسان
وهي التي يشرب فيها الماء وليـس بالجـوق له بغاء
تهبـط في الحين من كلاه قوته حـتى يلـي محـراه
ويدفع المجـاري للمثانـة في سـرعة ولم تطـل زمانه
ويخرج البـول بلا تلوين كأنـه مفـارق في الحين
فهـو إذا كـان كـذا ردي في حالـه ونوعـه وبـي
وهو إذا كان بصبغ صالح ويظهـر العلاج فيه ناجح

وفي حديثه عن أنواع الحمى، تناول حمى "الغب" وأعراضها، فقال:

تبدأ بالنابض حمى الغب يومـا ويوما لا بأمر صعب
ومـدة النابض لا تطـول وبـردها مقـصر قليـل
لكنـها تبدأ بالتسخـين ويسـرع التهابها في الحـين
وحرها يلدغ كف اللامس كأنـه لهب نار القـابـس

وربمـــا خلـــط في الكلام صاحبها في شـدة المقـام
لا سيمـــا إن كان ذا مزاج محـــترق ملتهـــب وهاج

*** تصنيف ابن طفيل في علم الفلك:**

لابن طفيل مؤلفات في الفلك، أشار ابن رشد إلى أحدهما في شرحه الأوسط على كتاب (الآثار العلوية لأرسطوطاليس)، ويشير تلميذ ابن طفيل البطروجي إلى هذا أيضاً في مقدمة كتابه في الفلك[24].

المطلب الرابع: أقوال مأثورة وشهادات على موسوعية ابن طفيل المعرفية

مما يلفت النظر ويثبت تعمق ابن الطفيل في علم الطب أن مؤرخ الأندلس المقري صاحب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) حين أثبت فخر الأندلس بمن فيها من العلماء ذكر ابن الطفيل في مجال الطب، وإن أشار إلى علوه في الفلسفة فقال: "**وهل لكم في الطب** مثل ابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان المقدم في علم الفلسفة؟[25].

وذكر ابن أبي أصيبعة، أن لابن رشك كتابًا عنوانه (مراجعات ومباحث بين أبي بكر بن الطفيل و ابن رشد في **رسمه للدواء**)[26].

وذكر صاحب المعجب عنه[27]...(في **الطبيعيات** رسالة سماها رسالة: حي بن يقظان غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنساني على مذهبهم، وهي رسالة لطيفة الجِرْم، كبيرة الفائدة في ذلك الفن، ومن تصانيفه في **الإلهيات** رسالة في النفس رأيتها بخطه –رحمه الله، وكان قد صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهي ونبذ ما سواه. وكان حريصًا على الجمع بين **الحكمة والشريعة**، معظمًا لأمر النبوات ظاهرًا وباطنًا، هذا مع **اتساع في العلوم الإسلامية**.

وبلغني أنه كان يأخذ الجامكية[28] مع عدة أصناف من الخَدَمة، من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد، إلى غير هؤلاء من الطوائف. وكان يقول: لو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم).

خاتمة:

لقد استطاع ابن طفيل في قصته "حي بن يقظان" أن يصبّ آراءه المتجلية في عدم التعارض بين العقل والشريعة أو بين الفلسفة والدين في قالب روائي قصصي محبك، وتمثل قصته حي بن يقظان العقل الإنساني الذي يغمره نور العالم العلوي، فيصل إلى حقائق الكون والوجود بالفطرة والتأمل كما تؤكد القصة على أهمية التجربة الذاتية في الخبرة الفكرية والدينية وكأنّ عنوان قصته يحيل إلى أنّ "حي" (رمز للحياة) كما يحيل اسم "يقظان" إلى (يقظة العقل وإيقاظ الفطرة ..) وبالتالي لا حياة طيبة إلا بإيقاظ العقل والفطرة ...

إنّ ابن طفيل توسل الأدب منهجا، في مجال فلسفي خاص، انفلت فيها الأديب من صرامة الفيلسوف ليترجم تصوراته وأفكاره بواسطة الرواية أو الشعر ... وهكذا يمكن للفيلسوف الكاتب أن يضيف إلى الحقل الأدب إسهامات لا تأتي من داخل هذا الحقل ذاته، كما يجوز للأديب المتفلسف أن يفتح سبلا للتساؤل قد تسعف الفيلسوف في تعميق كثير من رؤاه وتصوراته» [29].

الهوامش والإحالات

[*]– نسبة إلى قبيلة إياد إحدى قبائل العرب التي كانت تسكن تهامة فحاربتها قبائل مضر وربيعة وأجلتها عن جزيرة العرب إلى العراق، وقد عرفت قبيلة إياد في الجاهلية بشدتها وبأسها، كما عرفت كذلك بخطبائها.

[1]– كتاب العين للفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال، بيروت ج5، ص378. والقاموس المحيط لفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:8، ج1، ص 1054. ولسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت ط3، ج 11، ص598.

[2]– سورة المائدة، الآية: 3.

[3]– معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام محمد هارون، ج: 4 دار الفكر، كتاب العين، ص: 281.

[4]– الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت1094هـ)، عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط2، (1433)–(2012)م، بيروت لبنان، دمشق سوريا، ص: 824.

[5]– ينظر كتاب منظومة القيم العليا لطه جابر العلواني وكتاب منظومة القيم العليا لفتحي حسن ملكاوي.

[6]– كما بينها الدكتور فتحي حسن ملكاوي في كتابه منهجية التكامل المعرفي مقدمات في المنهجية الإسلامية، هرندن فرجينيا، و م أ، 2011.

[7]– إسلامية المعرفة: مدخل لتحقيق التكامل المعرفي في قسم التربية الإسلامية بكلية التربية جامعة الأزهر– رسالة مقدمة للحصول على درجة دكتوراه الفلسفة في التربية (تخصص أصول التربية) إعداد: محمد على محمد حسن، 2019م –1441هـ.

[8]– جزيرة الواقواق: وهي جزيرة أسطورية ذكرت في بعض المصادر القديمة: في كتاب عبيدالله بن خُرداذبه في كتابه "المسالك والممالك"، وكتاب "مروج الذهب" للمسعودي، وفي "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي، وفي كتاب "مختصر العجائب" للمسعودي والمنسوب إلى إبراهيم بن وصيف شاه، ولقد ورد في كتاب "المسالك والممالك": أنّ موقع جزيرة الواقواق في مشارق بحر الصين وذكر المسعودي أنها تقع فوق زنجبار إلى ناحية الجنوب من سفالة الزنج، وأورد أنه يسكن هذه الجزيرة جنس على شكل نساء يصحنَ "واق، واق"، وإذا قبض على إحداهن سقطت ميتة، وأنه لا يسكن الجزيرة رجال.

[9]– سورة القصص، الآية (10)

[10]– سورة القصص، الآية (7) .

[11]– سورة سبأ (3).

[12]– سورة يس (82).

[13]– القصص (88).

[14]– سورة غافر الآية (16).

[15]– سورة البقرة الآية (7).

[16]– سورة النازعات الآيات (37،38،39).

[17]– سورة الفتح، الآية (23).

[18]– قصة حي بن يقظان الصفحة ص (12،13،14،15).

[19]– قصة حي بن يقظان الصفحة ص21.

[20]– قصة حي بن يقظان.

[21]– علي أسعد وطفة، مجلة الوقف الأدبي – مجلة فكرية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، عدد 260/259 تشرين الثاني وكانون الأول 1992– بتصرف.

[22]– ابن سينا وابن طفيل والسهروردي، حي يقظان، تحقيق وتعليق أحمد أمين، ط أقلام عربية 2019 ص42و43.

(23)– بحر الرجز بحر معروف من بحور الشعر العربي، وتسمى قصائده الأراجيز ومفردها أرجوزة، ويسمى قائله: راجزا .

(24)– موسوعة علماء العرب – عبدالسلام السيد – الطبعة الثانية، 2011.

(25)– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تأليف الشيخ أحمد بن محمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى 1041، دار الكتب العلمية، ص 169.

(26)– ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، نشرة ملز، القاهرة، سنة 1882.

(27)– المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لصاحبه عبد الواحد المراكشي، الجزء 1، ص 177.

(28)– الجامكية: لفظ فارسي معرب، رواتب أصحاب الوظائف من الأوقاف، معجم لغة الفقهاء محمد رواس قلعه جي / حامد صادق قنيبي– صدر: 1405هـ/1985م.

(29)– أفاية نور الدين، في النقد الفلسفي المعاصر، مصادره الغربية وتجلياته العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2014 ، صص 206 – 207.